

عقبة بن عامر مبعوث عمر إلى قواته في الشام



نحن الآن في رحاب سيرة صحابيِّ جليل، وقائد من قادة الفتح الإسلامي، ووالٍ تحمّل المسؤولية، فحفظ الرسالة، وأدى الأمانة، وعالم وفقيه يرجع إلى أحاديثه الرواة المحدثون، وفوق ذلك كله رجل مشهود له بالتقوى والإيمان منذ أن بايع النبي ﷺ ودخل في الإسلام يوم قدوم النبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة.

هذا الرجل هو عقبة بن عامر الجهنيُّ.

فكما تحدثنا المصادر والروايات أن هذا الصحابي الجليل كان من الأوائل الذين جاءوا مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر بهدف تحريرها من الروم. . وكان للمسلمين خطة في ذلك الفتح، مؤداها أن يقوموا بحصار الإسكندرية قبل أي إقليم آخر من أقاليم مصر - بعد فتح مصر - لغرضين من أغراض الحرب.

أولهما: لأن الإسكندرية كانت مكاناً تتمركز فيه القوة الحقيقية الضاربة للروم، واتخذت هذه القوة حصوناً شيدوها لذلك، أو كانت معدة للدفاع عن مصر ضد أي هجمات تأتيها من ناحية البحر المتوسط، ولهذا اعتبرت الإسكندرية مفتاحاً لمصر من الجهة الشمالية.

وثانيهما: لقرب هذه المدينة أكثر من غيرها من المدن المصرية للقوات الرئيسية لدولة الروم، إحدى، القوتين العظميين في العالم القديم، وهو ما يجعل مدّها بقوات أخرى عبر البحر أمراً ميسوراً.

لهذا ولغيره من أسباب كانت خطة المسلمين بعد تحريرهم لمصر هي حصار

الإسكندرية أولاً قبل أى مدينة بمصر كلها، حتى يتيسر بعد ذلك استيلاؤهم على بقية أقاليم مصر.

ولهذا أيضاً واصل عمرو بن العاص حصاره للإسكندرية فترة من الوقت، موجهاً بعض قواته إلى عمق مصر فى الأقاليم، حتى مصر الوسطى، وقد اختار أربعة من كبار القادة ليكونوا فى مقدمة هذه القوات المتوجهة إلى أقاليم مصر، وهم عقبة بن عامر الجهنى، وعبد الله بن حذافة السهمى، وخارجة بن حذافة العدوى، وعمير بن وهب الحمى.

هؤلاء الأربعة - كما أشار عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد كانوا من أقدر الرجال كفاءة، وهم أيضاً من الرجال المشهود لهم بحسن التصرف فى الشدائد والأزمات..

كان دور عقبة بن عامر بين هؤلاء الأربعة هو أن يقوم بتحرير عدد من القرى المنتشرة حول القاهرة أو ما عُرِفَ بعد ذلك بالفسطاط فيتم بذلك تحرير مصر كلها.. وقد فعل ذلك، فبقى مُحاصراً لهذه القرى فترة، تم فيها لعمرو بن العاص تحرير الإسكندرية من الروم.

هذا الدور الذى اختير عقبة بن عامر للقيام به لم يكن سهلاً، فيكفى أن تطبق عليه قوات الروم، ومعهم أهالى هذه القرى، للقضاء على هذه القوة التى يقودها عقبة.

إن اختيار هذا الصحابى الجليل لهذه المهمة كان بناءً على ثقة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، ثقة ناتجة عن كفاءة واقتدار تميز بها عقبة، فهو رجل من أصحاب النبى ﷺ، بايعه وآمنَ به بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وفى ذلك يسجل ابن عساكر - مستنداً إلى مايقوله عقبة عن نفسه: «بَلَّغَنِي قَدُومَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَأَنَا فِي غَنِيمَةٍ لِي، فَرَفَضْتُهَا، وَتَوَجَّهْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايِعْنِي. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: بَيْعَةُ أَعْرَابِيَّةٍ، أَوْ بَيْعَةُ هَجْرِيَّةٍ! فَبَايَعَنِي ﷺ».

ومن وقتها لازمَ عقبة بن عامر رضى الله عنه النبى ﷺ، وكان من أصحاب

الصفّة، المقربين الذين يقومون بخدمة النبي الكريم، حتى أنه كان يقود البغلة الخاصة بالنبي ﷺ في الأسفار أو التوجه إلى الغزوات، وكثيراً ما كان النبي الكريم ينزل عن بغلته، ويأمر عقبة بن عامر بالركوب إشفافاً عليه، ورحمة به، ليمشى ﷺ على رجليه.

وطبيعي أن يكون عقبة بن عامر رضى الله عنه - وهو الصحابي المقرب إلى النبي ﷺ - مُقرباً لمن يجيئ بعده من الخلفاء الراشدين خاصة أبي بكر الصديق، والفاروق عمر رضى الله عنهما. ففي عهد خليفة رسول الله أبي بكر رضى الله عنه، كان عقبة بن عامر من الرجال الموثوق بهم، والذين يُستعان بهم في الكثير من الأمور المهمة، هذا إلى جانب أنه أبلَى بلاءً حسناً في مناصرة أبي بكر في حربه ضد المرتدين، وكان يفعل هذا مؤمناً بأنه إنما يفعله لمناصرة الإسلام، هذا الدين الذي اختاره عن رضا واقتناع، ويناصر نبيه الكريم، الذي رأى منه عن قرب ما لم يره الكثيرون من الصحابة، فوقف على جوانب عدة من أخلاق هذا النبي الذي قال عنه القرآن: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) فقد كان حقاً وصدقاً على خُلُقٍ عظيم بين البشر.

وفي عهد الفاروق عمر رضى الله عنه، كان لعقبة بن عامر دور في الفتوحات الإسلامية، فإلى جانب دوره الكبير في تحرير مصر كان له دور عظيم في فتح الشام، لقد كان المبعوث المُؤتمَن بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقواته في الشام، حتى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه في أثناء فتح دمشق قطع الطريق بينهما وبين المدينة المنورة في سبعة أيام. لتبليغ المؤمنين بما أنجزه المسلمون هناك من انتصارات، ورجع إلى دمشق عائداً من المدينة في يومين ونصف يوماً ببركة دعائه عند قبر النبي ﷺ، وتشفعه به في تسهيل صعوبات الطريق.

وإذا كانت لعقبة بن عامر إسهامات جليلة في الفتوحات الإسلامية، فله إسهامات أخرى في مجال العلم والمعرفة. فيقول عنه أبو سعيد بن يونس، أحد الرواة الموثوق بهم:

(١) سورة القلم - الآية الرابعة.

«كان عقبة بن عامر الجهني قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، صحيح اللسان، شاعراً كاتباً، وهو آخر مَنْ جَمَعَ القرآن الكريم، حيث يذكر المؤرخون أنهم رأوا مصحفاً في مصر على غير كتابة مصحف عثمان، وقد ذُيِّلَ في آخره عبارة: كَتَبَهُ عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ». ولذلك نَجِدُ أهلَ مصر يثقون به، ويستمعون إليه، ويحفظون عنه، فيذكر ابن تغري بردى: «أن لأهل مصر فيه اعتقاداً عظيماً، ولهم عنه نحو مائة حديث شريف..». وقد ذكر ابن عبد الحكم أحاديث عقبة بن عامر رضى الله عنه التي رواها عنه أهل مصر، ومنها: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ، ثُمَّ صَلَّى غَيْرَ سَاهٍ وَلَا لَاهٍ كُفِّرَ عَنْهُ مَا كَانَ قَبْلَهَا مِنْ سَيِّئَاتِهِ».

وقال عقبة بن عامر رضى الله عنه: «كنت آخذُ بزمام بَغْلَةَ النَّبِيِّ ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: يا عقبة ألا تركب؟ فأشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً.. فنزل رسول الله ﷺ وركبتُ هُنَيْهَةً. ثم ركب عليه الصلاة والسلام فقال لى: هل لا أعلمك سورتين؟ فقلت بلى يا رسول الله.

فأقرأنى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم وصلى بهما وقال: اقرأهما كلما قُمتَ ونمت..».

ولقد تولى عقبة بن عامر رضى الله عنه ولاية مصر من قِبَل معاوية بن أبى سفيان، خلفاً لأخيه عتبة بن أبى سفيان فى سنة أربع وأربعين هجرية، فكان من الثمانين صحابياً الذين وقفوا على قبة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط.

وقد كتب وهو وال على مصر إلى معاوية بن أبى سفيان يسأله أرضاً بينى فيها منازل ومساكن، فأمر له معاوية بألف ذراع.. هذه الأرض التى خصصها له معاوية تقع فى محافظة الجيزة الآن، وبالتحديد بجوار منطقة الدقى، والتى عُرِفَتْ وقتئذ «بمنية عقبة» حيث كانت كلمة «منية» تعنى ميناء، لأن هذه المنطقة كانت واقعة فى ذلك الوقت على الشاطئ الغربى للنيل قبل تحوله قليلاً إلى الشرق، ثم حُرِفَتْ كلمة «منية عقبة» فأصبحت تُعْرَفُ الآن «بميت عقبة» نسبة إلى هذا الصحابى الجليل.

ويذكر الرواة المؤرخون أن فتره ولاية عقبة بن عامر على مصر استمرت ثلاث سنوات، من بعدها تولى ولاية مصر مَسْلَمَةُ بْنُ مُخَلَّدٍ، من قِبَل معاوية بن أبى سفيان أيضاً.

ولقد اكتنف عزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلد ولاية مصر أسلوباً من أساليب معاوية بن أبي سفيان الملتوية، بدأه بأن طلب من مسلمة بن مخلد أن يكتم نبأ توليه أمر مصر خلفاً لعقبة بن عامر، مُسَيِّراً إِيَّاهُ إِلَى مِصْرَ، وفي الوقت نفسه أمراً عُقْبَةَ بِغَزْوِ «رُودَس» مستعيناً بمسلمة بن مخلد وخرج الاثنان: عقبة بن عامر، ومسلمة بن مخلد إلى الإسكندرية، وتوجهها - كما أمرهما معاوية - إلى «رُودَس» عن طريق البحر. فلما انشغل في الأمر عقبة استولى مَسَكَمَهُ عَلَى سَرِيرِ إِمْرَتِهِ وولايته كما رسم له معاوية بن أبي سفيان، وعندما بلغ عقبة بن عامر هذا الأمر قال غير آسف على ما حدث: «مَالِي أَرَى الْأَمْرَ أَبْطَأَ عَلَيَّ!»، إشارة إلى أنه كان ينتظره، حتى يتحرر من تبعات الولاية وما قد تجلبه على صاحبها من آثام ربما لا يكون له ذنب فيها اللهم إلا أنه أصبح مسئولاً عن أمر المسلمين.

والحق أن طريقة معاوية بن أبي سفيان في عزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلد رضى الله عنهما. كانت لا تخلو من مكر مصدره معاوية بالطبع. وأقل ما يقال عنها بأنها واحدة من الأساليب الملتوية لمعاوية بن أبي سفيان، فضلاً عن كونها تنافى تماماً الكثير من القواعد المرعية في مثل هذه الأحوال، خاصة أنها تتعلق بصحابي جليل مثل عقبة بن عامر، وهو مَنْ هُوَ؟ إنه أحد المقربين إلى النبي ﷺ وخلفائه من بعده.

وهناك من الروايات والمراجع التاريخية ما يقرر أن معاوية فعل ما فعل لأنه أدرك ما لعقبة بن عامر من قبول واستحسان، وحبّ وولاء من المصريين، مما أصبح خطراً عليه، فقد يستطيع أن يستقل بمصر منفصلاً عن الدولة الإسلامية.

وعلى أى حال مهما يكن ما لدى معاوية من أسباب ومسببات لعزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلد، فإن ذلك لا يتيح له أن يسلك معهما مثل هذا الأسلوب الملتوى.

وبعد هذا العزل غير الكريم.. أقام عقبة بن عامر بمصر مدة عشر سنوات، فلم يبرحها عائداً إلى المدينة المنورة، حتى توفي سنة ثمان وخمسين هجرية، يُدْفَنُ فِي الْقَرِافَةِ الْكُبْرَى، وليكون قبره مزاراً يتبركُ بِهِ الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ لورع صاحبه وتقواه، وجهاده في سبيل الإسلام.
